

الرحلة والسفارات العربية

أ.د. بركات محمد مراد

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية التربية - جامعة بني نفوس

الرحلة والسفارات العربية

مارست الدول العربية والإسلامية منذ وقت مبكر مبدأ الحصانات على قاعدة عرفية استحدثتها من التراث العربي القديم وأكدتها الشريعة الإسلامية ، وأقرتها قاعدة أخرى شكلت المفهوم العام للعلاقات الدولية والدبلوماسية . حيث ساعدت على نمو وتطور علاقة الدولة الإسلامية مع الدول والشعوب والأقوام ، عاملة على إرساء قواعد فى التعامل الدولي والتبادل الدبلوماسي انطلاقا من مفهوم السلام والوئام والتعاهد والمودة .

وذلك من خلال تطبيقها لمبادئ العدل ، والإنصاف ، والمساواة ، ومبدأ المعاملة بالمثل ، ومبدأ الحماية بكل أشكالها وأنواعها . فلقد عرف العرب قبل الإسلام حصانة بيت الله الحرام ، وعرفوا عقد المؤتمرات والأحلاف ، لاسيما حلف الفضول ، الذي كان لنصرة وحماية المظلوم ، كما دفع العرب الظلم والجور ونبذوا الخضوع والمذلة ، حيث تمت وتوسعت علاقات الدولة الإسلامية مع غيرها فى جميع المجالات الاقتصادية والتجارية والثقافية والعلمية ، خاصة وأن البلاد العربية قد احترمت مبدأ الحصانة الدولية والدبلوماسية ، واستنبطت من أحكام الشرع والفقه والإجتihad نظرية أو مفهوما أصيلا للحصانات والامتيازات ، ومن هنا كانت الدبلوماسية والسفارة .

الدبلوماسية والسفارة : أصل كلمة الدبلوماسية : هي كلمة يونانية اشتقت من كلمة دبلوم أو دبلون ومعناها طبق أو طوى أو ثنى ، فلقد كانت تختم جميع جوازات السفر ورخص المرور على طريق الإمبراطورية الرومانية ، وقوائم المسافرين والبضائع على صفحات معدنية ذات وجهين مطبقين ومخيطين سويا بطريقة خاصة ، وكانت تذاكر المرور هذه تسمى (دبلمات) واتسعت كلمة (دبلوما) حتى شملت الوثائق الرسمية غير معدنية التى تمنح مزايا أو تحتوي على اتفاقات مع جماعات أو قبائل أجنبية .

يقول "شيشرون" (١٠٦-٤٣ ق.م) عن الدبلوماسية: "تستخدم كلمة دبلوما بمعنى التوصية الرسمية التى تُعطى للأفراد فى البلاد الرومانية وكانوا يحملونها معهم ليسمح لهم بالمرور ، وليكونوا موضع رعاية خاصة" . ثم انتقلت الدبلوماسية اليونانية إلى اللاتينية وإلى اللغات الأوربية ثم إلى اللغة العربية . والدبلوماسية فى اللغة العربية يعبر عنها بكلمة (كتاب) للتعبير عن الوثيقة التى يتبادلها أصحاب السلطة بينهم ، والتى تمنح حاملها مزايا الحماية والأمان . وكلمة (سفارة) تستخدم عند العرب بمعنى الرسالة أى التوجه والانتقال إلى القوم ، بغية التفاوض . وتستخدم كلمة (سفارة) من سفر أو "أسفر بين القوم إذا صلح بينهم" . وكلمة (سفير) هو من يمشي بين القوم فى الصلح أو بين رجلين .

وقد عرفها "معاوية ابن أبي سفيان" بقوله : " لو أن بيني وبين الناس شعرة لما قطعها إن أرخوا شددتها وإن شدوها أرخيتها" . وعرف "ارنست ساتو" الدبلوماسية بأنها : " استعمال الذكاء والكياسة فى إدارة العلاقات الرسمية بين حكومات الدول المستقلة" . أما "شارل كالفو" فقد

عرفها بأنها "علم العلاقات القائمة بين الدول كما تنشأ عن مصالحها المتبادلة أو عن مبادئ القانون الدولي ، ونصوص المعاهدات ، ومعرفة القواعد والتقاليد التي تنشأ ، وهي علم العلاقات أو فن المفاوضات أو فن القيادة والتوجيه" . ويقول عنها الدكتور "عدنان البكري" هي عملية سياسية تستخدمها الدولة في تنفيذ سياستها الخارجية في تعاملها مع الدول والأشخاص الدوليين الآخرين وإدارة علاقاتها الرسمية بعضها مع بعض ضمن النظام الدولي" . ويرى الباحث "مأمون الحموي" أنها علم وفن ، فهي علم ما تتطلبه من دراسة عميقة للعلاقات القائمة بين الدول ومصالحها المتبادلة ومنطق تواريخها وموانئق معاهداتها من الوثائق الدولية، في الماضي والحاضر . وهي فن لأنها ترتكز على مواهب خاصة عمادها اللباقة والفراسة وقوة الملاحظة .

فالدبلوماسية تستخدم لتحقيق تطبيق وسائل معينة للدخول في مفاوضات بين الدول ، وكما يقول "هارولد نيكلسون" أن: "الدبلوماسية ليست غاية بل وسيلة: ليست غرضاً بل طريقة . فهي تهدف عن طريق استخدام المنطق إلى تحقيق التفاهم وتبادل المصالح لمنع النزاعات التي تنشأ بين الدول ، أي أنها أداة تحاول السياسة الخارجية من خلالها ان تحقق أغراضها عن طريق الاتفاق بدلاً من الحرب(١) .

وتخطط المباحثات الدبلوماسية عادة بعناية فائقة وتتوخى المصالح الحيوية للدولة . وتقوم وزارة الخارجية عادة بتوجيه الشئون الدبلوماسية ، وتسيطر على الخدمة الدبلوماسية والقنصلية . وقد يشاركها في الخدمة القنصلية وزارة التجارة أو إحدى الوزارات المركزية الأخرى . وتقسم وزارة الخارجية إلى إدارات تتولى كل منها مجالاً معيناً من مجالات نشاط الوزارة ، وتتولى تحديد مهام المبعوثين لدى الدول الأخرى ، وتزودهم بالتعليمات اللازمة من وقت لآخر . ويجب أن يكون هؤلاء المبعوثين مقبولين من الدول المرسلين إليها .

وتصنف الخدمة الدبلوماسية إلى عدة وظائف ، ويأتي على رأسها منصب السفير ، فالمندوب فوق العادة ، فالوزير المفوض ، فالوزير المقيم ، فالقائم بالأعمال ، فالمستشار ، فالسكرتير ، فالملحق ، وقد يختلف هذا الهيكل الوظيفي من دولة لأخرى .

والاتجاه العام أن يعامل الممثلون الدبلوماسيون للدول المختلفة على قدم المساواة في مختلف المناسبات . ويقرر القانون الدولي الحصانات التي يتمتع بها المبعوثون الدبلوماسيون على أساس المعاملة بالمثل . ويتضمن عمل المبعوثين الدبلوماسيين عادة إجراء المفاوضات في المسائل التي تهم بلادهم والبلاد المرسلين إليها . وقد تتم هذه المفاوضات شفهيًا بالتحدث مع وزير خارجية الدولة المستقبلة ، أو بتبادل المذكرات المكتوبة . وقد تأخذ الأمور المتفق عليها شكل المعاهدات التي يوقعها الممثلون الدبلوماسيون ، ثم ترسل هذه المعاهدات إلى الحكومات المعنية لإقرارها(٢) .

رؤية تاريخية : ولا ننسى - كما يقول "دويل" أن البشرية قد عرفت منذ وقت مبكر الدبلوماسية ، فقد ظهرت آثارها على الألواح الأشورية ، وفي التاريخ الصيني والهندي والإغريقي والروماني ، بل إنها ظهرت في المجتمعات البدائية والتي كانت تجريها بهدف القيام بالاتصال والتباحث من أجل

المصاهرة والزواج ، أو بحث عدة شئون منها الصيد والأعياد والشعائر الدينية . كما كانت غاية البعثات تطوير العلاقات الودية ونبذ الحروب والدعوة للمفاوضات وعقد الصلح والاحتفال بإرساء قواعد السلام . كما كان تشجع على قيام جماعات سياسية من أجل التحالف والمساندة كوسيلة لرعاية السلام ، "كحلف الفضول " و"حلف الطيبين" ، وفى بعض القبائل البدائية كانت تلقى عمل السفارة على النساء .

وقد نشطت الدبلوماسية فى الشرق الأوسط حيث قامت مدنيتان امتدت من أرض ما بين النهرين دجلة والفرات إلى وادي النيل ، فى إمبراطوريات الكلدانيين والبابليين والفراعنة ، حيث كانت العلاقات الدولية تتميز بسمات المجتمعات الآسيوية التى شكلت قاسما مشتركا لحضارات واسعة امتدت من مصر غربا حتى الهند الصينية شرقا . وقد اكتشفت مجموعة من الرسائل الدبلوماسية بلغ عددها ٣٦٠ لوحة من الصلصال ، وهى عبارة عن المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين فراعنة الأسرة ١٨ فى القرنين ١٥-١٤ ق.م وملوك بابل من الحيثيين بسوريا وفلسطين ، معظمها مكتوب باللغة البابلية لغة العصر الدبلوماسية .

وقد اتبعت الدبلوماسية فى الصين القديمة قواعد ومبادئ ارتبطت بنظريتهم الفلسفية وأسبغت عليها هالة من القدسية من الديانة البوذية والبراهمية ، حيث دعا "كونفوشيوس" فيلسوفهم إلى اختيار مبعوثين يتحلون بالفضيلة ويختارون بناء على الكفاية لتمثيل دولهم فى الخارج . كما فضل الفيلسوف الصينى "كوانج شينغ" اللجوء إلى استخدام الوسائل السلمية على الوسائل الحربية ، وتخصيص الدولة ثلثي ميزانيتها للإنفاق على الاتصالات والبعثات الدبلوماسية .

أما الدبلوماسية فى الهند القديمة ، فنجد كتب الهند المقدسة خاصة الفيذا والماتوا ، يتضمنان القواعد الخاصة بالسياسة الخارجية وللسفراء وشؤون الحكم ، خاصة قواعد ومبادئ اختيار السفراء وصفاتهم ، ووظائف السفارة وتبعاتها فيما يتصل بالتفاوض وعقد المعاهدات الدولية .

أما الإغريق فقد طوروا نظما دقيقة للاتصال الدبلوماسي وإرساء قواعد السفارات أكثر تقدما وتخصصا ، بحيث عرفوا مبدأ التسوية بالتراضي أو المصالحة ، وعرفوا الاتفاق أو الهدنة المحلية المؤقتة ، واتقنوا فن المعاهدات والتحالفات وبروتوكولاتها ، ووضعوا القواعد الدقيقة لتنظيم كل ذلك وقد عرفوا نظام القناصل فى تاريخ العلاقات الدولية ومارسوا الدبلوماسية فى أرقى صورها ، ثم امتد هذا التراث السياسى والقانونى إلى الرومان الذين ورثوا عن الإغريق بعضا من التقاليد والقواعد الدبلوماسية ، على الرغم من أنهم كانوا يفضلون استعمال القوة على استعمال الحكمة والأساليب الدبلوماسية .

وقد عرف العرب والمسلمون الأوائل بعض صور الدبلوماسية ، وانتشرت بينهم مصطلحات "أهل العهد" و"أهل الذمة" ، كما عرفوا "الأمان الدبلوماسي" الذى يتمتع به أهل المنعة أو أهل الحصن ، وهم جماعة الرسل والمبعوثين الدبلوماسيين الذين يتمتعون بنظام أمان سواء أكانوا مبعوثين من "دار الإسلام" أو من "دار الحرب" أم من "دار العهد" أو الصلح أو الحياد . وعن هذا النظام ينشأ مبدأ الحصانة الدبلوماسية الذى أقرته الشريعة الإسلامية فى دائرة الحصانة الممنوحة للأشخاص .

ومن مفهوم "الأمان" انبعثت الحصانات والامتيازات الدولية والدبلوماسية ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - أول من طبق الأمان ، وأقر مبدأ المنعة الشخصية للسفراء أو المبعوثين . ولقد كان الفقهاء المسلمين أول من طرح بعض القواعد والأسس النظرية التي تفسر منح حصانات وامتيازات دبلوماسية والتي ارتبطت بمفهوم الولاية والخلافة والدولة .

ولا ننسى أول سفارات المسلمين التي بعث فيها النبي الكريم إلى الدول والأقاليم المجاورة سفراءه بكتبه ورسائله بالهدى ونور الحق ، حيث أرسل إلى "نجاشي الحبشة" عمرو بن أمية الضميري ، وإلى "هرقل الروم" دحية بن خليفة الكلبي ، وإلى "كسرى ملك الفرس" عبد الله بن حذافة الهمي ، وإلى "المقوقس حاكم مصر" حاطب ابن أبي بلتعة ، وإلى "الحارث بن أبي شهر الغساني ملك البلقاء" شجاع بن وهب الأسدي ، وإلى "أمير اليمامة" سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري ، وإلى "أمير البحرين" وأمير "عمان" (٣) هؤلاء السفراء من أصحاب الرسول الكريم تم اختيارهم كجزء من المهمة ، فدحية الكلبي الذي حمله مسئولية لقاء "هرقل" قيصر الروم في ظروف انتصاره على كسرى ملك الفرس ، كان يتميز بحسن المظهر تميزه بحسن الإيمان وحسن الإدراك . أما محتوى الرسائل فكان الدعوة المباشرة إلى الإيمان بالله وحده والإسلام (٤) .

ثم توالت السفارات والاتصالات السياسية بين العرب والمسلمين وبقية شعوب الأمم والحضارات ، بحيث كانت تمثل ركيزة أساسية يُعتمد عليها ويُلتجأ إليها بدل استخدام القوة العسكرية ، وفي كثير من الأحيان حين تضع الحرب أوزارها ، ولا يجد العدو مفرًا من المفاوضات السلمية والاحتكام إلى العدل والقوانين الدولية . ولم يغفل المسلمون التأليف في هذا المجال السياسي والقانوني الهام ، حيث يعتبر كتاب (الاعتبار) الذي وضعه "أسامة بن منقذ" ، وكتاب (رسائل الملوك) ومن يصلح للمراسلة والسفارة) لابن الفراء ، من المصادر المهمة التي تمدنا بكثير من المعلومات عن النظام الدبلوماسي في الحقب الإسلامية المتقدمة .

ولا نعدم أن نجد الآن كثيرا من المؤلفات العلمية الدقيقة التي تتناول تاريخ ونظم الدبلوماسية ، ومن بينها كتاب حديث (٥) يتحدث باستفاضة عن هذه النظم الإسلامية ، حيث نجده في أحد الفصول يتناول موضوع "التمثيل الدبلوماسي" ويتصدر ذلك مقدمة حول أصول النظم الدبلوماسية الإسلامية ، وبعض التعريفات الدبلوماسية ، وشروط انتقاء السفراء ، وما يحمله الغير من بطاقة شخصية موثقة ، ومراسم استقبال المسلمين للسفراء الأجانب ، وما حظوا به من حماية وحصانة دبلوماسية ، وما تمتعوا به من امتيازات وأخيرا دور القناصل الأفرنج من حماية مصالح ورعاية البلاد التي يمثلونها .

كما يتضمن فصل آخر "المراسلات الدبلوماسية" والغرض منها ، معتمدا على كتب من التراث الإسلامي مثل كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي . كما يعالج في فصل آخر موضوع "المفاوضات" وأهميتها في العلاقات الدبلوماسية ، مؤكدا ان المحادثات بين المسلمين والفرنجية على مدى قرنين من الزمان كان لها وزن كبير فيما تم بين الطرفين من اتفاقات ، كالمفاوضات بين "صلاح الدين الأيوبي" وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا قبل وبعد سقوط عكا بيد الصليبيين ، ومفاوضات صلاح الدين الأيوبي مع "كونراد مونفرات الماركيس" الذي رغب في التصالح مع صلاح الدين ضد الملك ريتشارد قلب الأسد .

أما "المعاهدات" والتي هي تتويج للمفاوضات ، فيعتبر عصر سلطنة المماليك قمة فيما تم من مفاوضات رسمية بين السلاطين المماليك وحكام صقلية ، وقشتالة وأورغون وغيرهم ، حيث توجت تلك المفاوضات في غالب الأحيان بمعاهدات صلح وصدقة كان لها بالغ الأهمية في حماية المصالح المشتركة بين هذه الممالك والدول ، سواء أكانت مصالح سياسية ، أم عسكرية ، أم اقتصادية ، أم ثقافية وغيرها من المصالح المتبادلة .

وقد أثار تلك المعاهدات المشاعر المختلفة عند الباباوات في روما ، فكانت مواقفهم منها متنوعة ومختلفة : مثل البابا نيقولا الرابع ، والبابا ونيفاس الثامن والبابا كلمنت الخامس ويوحنا الثاني والعشرين ، فمنهم من أيد ذلك التقارب الجديد في طبيعته وجوهره ومظاهره بين سلطنة المماليك والممالك الأوربية الكاثوليكية ، ومنهم من عارض ذلك بشدة مثل البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م) ، والذي اجتهد في الاعداد لحملة صليبية جديدة بالتعاون مع فرنسا وقبرص وأرمينيا الصغرى (٦) .

سفارات عربية ناجحة : وقد عرفت كثيرا من السفارات التي تمت بين العرب والمسلمين وملوك الفرنجة منذ وقت مبكر ، ومن هذه السفارات تلك التي تمت بين العباسيين وملوك الفرنجة : سفارة أرسلها الملك "ببين القصير" إلى بغداد عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ، وقد مكثت هذه في بغداد ثلاث سنوات ، عادت بعدها محملة بالهدايا ومعها رسل الخليفة المنصور ، وقد بالغ "ببين" في إكرام رسل الخليفة العباسي . وكذلك جري تبادل السفارات بين الأندلسيين والبيزنطيين : ومن هذه السفارات سفارة "تيوفلس" إلى عبد الرحمن الأوسط .

ويذكر "المقري" في كتابه "نوح الطيب" أن رسول الإمبراطور حمل إلى الخليفة الأموي رسالة "يرغب فيها بملك سلفه بالمشرق" . وقد أجاب عبد الرحمن الأوسط على هذه السفارة بسفارة أخرى ، على رأسها الشاعر "يحيى الغزال" . وقد حظيت هذه السفارة باهتمام كتابنا القدامى والمعاصرين ، ودارت مناقشات حولها ، وهل كانت إلى القسطنطينية أو إلى ملك النورمان أو الفيكن في أيرلنده . ومن أشهر هذه السفارات أيضا السفارة التي أوفدها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ورد عليها الخليفة بسفارة مثلها .

وكانت هناك أيضا السفارة بين شارلمان وهرون الرشيد ، التي ذكرها المؤرخون الأوروبيون في مؤلفاتهم من بعد . وهناك السفارة التي تركت روما من لدن الملكة "يرتا" ، متوجهة إلى الخليفة المتوكل في بغداد عام ٩٠٦ م ، عارضة عليه صداقة الملكة ، بل والزواج منها . وفي منتصف القرن العاشر الميلادي أرسل الخليفة الأندلسي "إبراهيم الطرطوشي" على رأس سفارة إلى الملك "أوتو" الأول ، ردا على سفارة هذا الملك إلى الخليفة . وقد ترك لنا إبراهيم الطرطوشي وصفا لفرنسا وإيطاليا وبلاد السلاف ، يفوق كثيرا ما تركه من سبقوه من الجغرافيين والرحالة .

ونشر المجمع العلمي بدمشق بتحقيق الدكتور سامي الدهان رحلة ابن فضلان الذي خرج من بغداد على رأس وفد دبلوماسي إلى أحد أمراء الصقالبة على أطراف نهر الفولجا (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) ردا على سفارة هذا الأمير إلى الخليفة المقتدر بالله يطلب منه العون على أعدائه . والواقع أن تاريخ

هذه السفارات التي تمت بين خلفاء المسلمين وملوك أوروبا في القرون الوسطى طريف وعجيب ، ويحتاج إلى دراسة مستقلة .

أول سفير عربي إلى بلاط ملوك أوروبا : حينما امتدت الحضارة العربية الإسلامية ، وشملت كثيرا من الأصقاع والمساحات الجغرافية الشاسعة ، قامت سفارات هامة بين خلفاء المسلمين من جهة ، وملوك وأمراء أوروبا من جهة أخرى . وما خلفه أولئك السفراء من وصف لأوروبا ، يعطينا صورة أكثر وضوحا من الصورة التي تركها الجغرافيون العرب أمثال "ابن خردادبة" (القرن ٩) ، والمسعودي (المتوفى عام ٩٥٦م) ، والمقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم" .

وأول سفارة وصلت إلينا أخبارها هي سفارة "يحيى الغزال" الذي أرسله الأمير عبد الرحمن الثاني عام ٨٤٥م على رأس وفد إلى ملك الفايكن النرويجيين، وقد ترك لنا الغزال وصفا طريفا لرحلته سجله فيما بعد أحد الأوربيين المهتمين بتاريخ العرب وسفاراتهم إلى الغرب (٧) .

ويعتبر "يحيى الغزال" رئيس أول بعثة دبلوماسية تمثل أميرا مسلما لدى ملك أوربي ، ولهذه السفارة أسباب سياسية لا بد من معرفتها ، موجزها أنه عند مطلع القرن التاسع الميلادي أخذت الشعوب الإسكندنافية المعروفة بالفايكن أو النورمان ، تسيطر على مناطق شاسعة من أوروبا ، ولذلك عرفوا بملوك البحار ، واشتهروا بقسوتهم ، وكانت الشواطئ الفرنسية المركز الأول لغزواتهم ، ثم استبد بهم الغرور حتى هاجموا الأندلس عام ٨٤٤م ، خاصة لشبونة ، حيث دارت معارك كبيرة وطاحنة بين الفريقين ثلاثة عشر يوما ، ترك الأسطول بعدها المدينة وأقلع معظمه متجها جنوبا في الوادي الكبير ، وغزا القسم الآخر منه مدينة قادش ونهبها . وقد احتل الغزاة مدينة أشبيلية الغنية بمزارع الزيتون والفاكهة، وأعاتوا فيها نهباً وتقتيلاً ، وأفاق الأمير عبد الرحمن الثاني من هول الصدمة ، وحشد جنده ، وأوقع بالعدو هزيمة منكرة ، بعد أن استولى على كثير من سفنهم وعتادهم .

ولم يقع هذا غزو للأندلس موقع الرضى عند ملك النورمان النرويجيين ، "تورجز" الذي كان حريصا على حسن العلاقة مع العرب في الأندلس ، لأنه كان يطمع في عقد إتفاقية معهم ضد أعدائه ، كما كان عبد الرحمن الثاني نفسه يطمع في مصادقة النرويجيين ضد عدوه و عدوهم "شارل الأصلح" ملك الفرنجة ، كما كانت هناك مصالح مشتركة بين الطرفين ، فالنرويجيين كانوا يطمعون في شراء خيرات الأندلس التي كانت أغنى بلاد أوروبا ، مقابل بيعهم للمسلمين الفراء الذي تخصصوا فيه . كل هذه الأسباب دعت الملك "تورجز" بإيرلنده يرسل وفد صداقة إلى عبد الرحمن الثاني محملا بالهدايا . وقد اهتم الأمير بهذا الوفد اهتماما كبيرا حتى أنه رافق الوفد في عودته وفد من لدن الخليفة برئاسة شخصية مرموقة هي "يحيى الغزال" ، مما يدل على اهتمام الخليفة بهذه السفارة .

وكان الغزال قد أرسل من قبل على رأس بعثة دبلوماسية إلى الإمبراطور تيوفليس ، إمبراطور بيزنطة عام ٨٤٠م ردا على بعثة الإمبراطور التي أرسلها إلى الخليفة الأندلسي قبل هذا التاريخ بعام ، وقد كان غرض هذه البعثة إقامة تحالف بين الإمبراطور البيزنطي والخليفة الأموي ، ضد الخليفة العباسي في بغداد .

واسم الغزال الحقيقي هو "يحيى بن حكم البكري الجبائي" من كورة كبيرة شرق قرطبة ، ولقب بالغزال لجماله ، وقد بلغ الخمسين من عمره حين غادر قرطبة إلى إيرلندا ، ممثلاً للخليفة الأموي . ومصدرنا الأول عن سفارة الغزال هذه رجل عاش بعد تاريخ هذه السفارة بنحو أربعة قرون ، هو "أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية" المولود ببينسية بالاندلس عام ١١٥٩ م ، والمتوفى عام ١٢٣٥ م .

وابن دحية في تسجيله لسفارة الغزال إلى ملك النورمان إنما ينقل عن مخطوطة مفقودة لـ "تمام بن علقمة" الذي كان وزيراً في الأندلس عام ٨٩٦ م وصديقاً للغزال ، وعنه يروي إذ يقول : "حدثني الغزال فقال ... " ، وليس هناك من مخطوطة ابن دحية إلا نسخة واحدة اشتراها المتحف البريطاني بلندن عام ١٨٦٦ م وما زالت موجودة به عنوانها "المطرب من أشعار أهل المغرب" (٨) . ووصف الغزال لرحلته - كما ورد في ابن دحية - طريف غاية الطرافة ، وطرافتها تغرينا بإيجازها .

عندما وصل رسل ملك النورمان إلى السلطان عبد الرحمن عارضين عليه الصلح ، وصدافة ملكهم قبل السلطان منهم ذلك ، ورد على هذه البعثة ببعثة أخرى أختار على رأسها "الغزال" ، ترافق البعثة في عودتها ، وتحمل للملك الهدايا والتحف . وأقلعت بعثة النورمان في سفينتها ، تصحبها سفينة بعثة السلطان وعلى رأسها الغزال . ولما أصبحوا في المحيط هاج البحر وماج ، وأصبحت حياتهم في خطر محقق لولا لطف الله تعالى ، وقد وصف الغزال - وهو شاعر اندلسي - الخطر الذي حاق بهم في قصيدة طويلة معبرة .

وأخيراً وبعد كثير من العناء والمشقة وصلوا إلى أول جزيرة من جزر النورمان ، وهناك نزلوا واستراحوا وأصلحوا من شؤونهم ، ثم استمروا في الرحلة حتى وصلوا إلى مقر الملك ، وكانت سفينة النورمان قد وصلت إلى الملك قبلهم وأخبرته بقدم بعثة السلطان عبدالرحمن ، فسر بذلك سرورا بالغا ، وأحاط نفسه بكل مظاهر العظمة والأبهة ليبهروا البعثة ، فتنقل إلى السلطان ما رأت ، وكان أولئك النورمان قد تركوا عبادة النيران ، وتنصروا ، وإن كان قسم منهم قد بقي على دينه ، يعبدون النار ، ويتزوجون أخواتهم .

وأمر الملك بأن يعد لهم قصراً لإقامتهم ، وإن يحاطوا بكل مظاهر التكريم ، وكانوا إذا مروا في الطريق تجمهر الناس للتفرج على ملابسهم الجميلة . وبعد يومين طلبهم الملك إليه ، وكان الغزال قد أرسل إلى الملك يخبره بأنهم لن يركعوا أمامه ، كعادة قومه عند دخولهم عليه ، لأن هذا الركوع مخالف لتعاليم دينهم ، فأجابهم إلى ذلك . وبيت في نفسه أمراً ، إذ أمر أن يوضع أمام العرش الذي يجلس عليه باب ، لا يدخل عليه أحد إلا منه ، ولا يستطيع أحد الدخول منه إلا راکعاً .

ولما رأى الغزال هذا الباب جلس على الأرض ومد قدميه ودخل من الباب ، وقدماه تواجهان الملك ، فأعجب الملك بذكائه . وقال : "أردنا ان نهينه فاستقبلنا بكعبي حذانه ! " . ثم وقف الغزال والقي أمام الملك خطاب السلطان فقرأه له المترجم فسر به ، وأخذ منه ووضع داخل ثيابه عند قلبه . وأحضرت الهدايا التي حملها الوفد إلى الملك فأدهشه جمال الثياب والتحف .

واحيط الغزال وصحبه بكل مظاهر التكريم أثناء إقامتهم . وكان الغزال أثناء ذلك ينفقش علماءهم فيخرسهم ، ويبارز أبطالهم فيصرعهم ، وذاعت شهرة الغزال ، واحبت امرأة الملك واسمها (تود) ان تراه ، فأرسلت إليه . ولما دخل عليها حملق فيها دون أن يتفوه بكلمة ، وكأنه قد صعق لدى رؤيتها

، فطلبت من مترجمها ان يسأله لماذا ينظر إليها هكذا . فأجاب : " لأنني لم أكن أتصور أن هناك امرأة في العالم بمثل هذا الجمال . لقد شاهدت نساء عديدات من كل جنس ولون وفي بلاط السلطان ، ولكني لم أر واحدة بمثل هذا الجمال" . فسرت الملكة بهذا الكلام سرورا بالغا ، وأمرت له بهدية ثمينة ، ولكنه رفضها وقال : " إن أتمن هدية عندي هي ان أرى هذا الجمال . هنا اشتد بالملكة السرور ، وأمرت بأن تحمل إليه الهدية حيث ينزل ، وان يفتح بابها أمامه فيدخل متى يشاء .

وأخذ بعد ذلك يتردد على الملكة كل يوم ، حتى كثرت الأقاويل عن علاقته بالملكة ، ونصحه رفاقه بالاقبال من زيارتها . ولما سألته الملكة عن سبب قلّة ترده عليها ، وعرفت منه السبب ، قالت له إن المرأة منا تتزوج بإختيارها ، وتترك زوجها متى تريد... لذلك لا تشعر بالحرَج من المَجى ! ثم إن الأزواج عندنا لا يعرفون الغيرة ! وهكذا عاد الغزال إلي زيارته لها يوميا .

ويقول "تمام بن علقمة" وقد سألت الغزال وهو يقص على أخبار رحلته : وهل حقا كانت الملكة بمثل هذا الجمال ؟ فقال لي : لقد كانت جميلة ، ولكني غالبيت لأكسب صداقتها ، وأحصل على ما أريد ، وقد نجحت في ذلك . ورغم ان الغزال كان فالخمسين من العمر إلا أنه كان مازال بديع الجمال ، مستقيم القامة كالرمح ، يفيض قوة وحيوية ، إلا أن شعره كان أشيب ، فسألته مرة : كم سنك ؟ فأجاب : عشرون فقالت له : وهل يشيب من كان في العشرين ؟ فأجاب : وما تنكرين من هذا ؟ ألم ترقط مهرا أشيب ؟ فضحكت توددا لجوابه الذكي . وفي هذه المناسبة قال الغزال قصيدة طويلة في قصته ، ويعلق تمام بن علقمة قائلا : " هذه قصيدة بديعة لو كان قائلها عمر بن أبي ربيعة أو العباس بن الأحنف أو أحد شعراء المشرق لجريت على الألسنة ، ولكنها منسية لا يرددها أحد لأن الشاعر أندلسي ! " .

ولما نقل المترجم للملكة معنى القصيدة ضحكت ، ثم أمرته أن يصبغ شعره ، ولما جاء لزيارتها صبيحة اليوم التالي ، وقد صبغ شعره ، أطرت لون شعره ، واستحسنته ، فأنشد قصيدة أخرى قال فيها :

بكرت تحسن لي سواد خضابي ... فكان ذاك أعادني لشبابي

ما الشيب عندي والخضاب لوأصف ... إلا كشمس جَلَّت بضباب

لا تنكري وضح المشيب فإنما ... هو زهوة الأفهام والألباب

فلدي ما تهوين من زهو الصبا ... وقلادة الأخلاق والآداب

وأخيرا حان موعد الرحيل ، فترك الغزال بلاد النورمان مشيعا بالاكرام ، وسار حتى وصل إلى قشتالة ، فكان في حضرة السلطان بعد غياب عشرين شهرا . وقد كان مولد الغزال في إمارة عبد الرحمن الداخل عام ١٥٦ هـ وتوفي على الأرجح عام ٢٥٠ هـ بعد أن عاش قرابة قرن من الزمان ، وكان صديقا حميما لعباس بن فرناس ، أول من حاول - من البشرية - الطيران والعالم الجليل في كثير من العلوم والآداب ، وقد جمع "حبيب ابن أحمد الشطجيري" (المتوفى ٤٣٠ هـ) ديوان الغزال الشعري ، وهو مفقود لم يعثر عليه بعد . رحم الله الغزال فقد كان كما قال فيه "ابن حيان" مؤرخ الأندلس : " حكيم الأندلس ، وشاعرها وعرفها" .

المصادر والهوامش :

- ١- Harold Nicolson : The congress of Vienna, pp. 164 – 165.
- ٢- د. توفيق عبد الغني الرصاص : أسس العلوم السياسية في ضوء الشريعة الإسلامية ص ٢٢٨- ٢٢٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٦ م ، وانظر د. حنان اخميس: تاريخ الدبلوماسية ... دراسات دولية .
- ٣- انظر ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، مصر عام ١٩٤٥ م
- ٤- د. محمد سيد محمد : المسؤولية الإعلامية في الإسلام ص ٩٠ ، ٩١ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر عام ١٩٨٦ م
- ٥- انظر عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية عام ١٩٨٦ م
- ٦- انظر مقال الدكتورة حياة ناصر الحجي لكتاب الدبلوماسية الإسلامية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ج٧ ص ١٦٨ - ١٧٥ الكويت ، ربيع عام ١٩٨٧ م ،
- ٧- هذا الوصف ورد في كتاب من تأليف الكاتب الأوربي **W.E.D. Allen** ، وانظر د. محمود السمرة : اول سفير عربي إلى بلاط ملوك أوربا ، مجلة العربي العدد ٥١ ، الكويت فبراير عام ١٩٦٣ م
- ٨ - كان أول من نشر النص العربي لهذه السفارة ، مع بعض الحذف المستشرق دوزي ، ثم نشرها "سبيل" بأسلو عام ٨٩٦ م ، وترجمت إلى اللغات الأوربية ، فترجمها بركلند إلى النرويجية ، ودوزي إلى الفرنسية عام ١٨٩٣ م ، وجورج يعقوب إلى الألمانية . كما نشر جون ستيفانسون ترجمة مختصرة بالإنجليزية ، وكتب عنها عام ١٩٣٧ م ليفي بروفنسال مقال عن اكتشافه لمخطوطة تناول فيها تاريخ الأمويين في الأندلس في القرن التاسع الميلادي ، وفيها وصف مسهب لسفارة الغزال إلى تيوفيلس امبراطور بيزنطة .